

رسائل محمد ونصوص معاهداته

(١)

تروى كتب السيرة والحديث والتاريخ أكثر من أربعين وثيقة نبوية ، ما بين رسالة إلى ملك أو أمير أو قائد ، وما بين معاهدة صلح أو أمان أو اتفاق على مسائل ينحسم بها النزاع ، وورود هذه الرسائل والمعاهدات مما أيدته مواقف حياته ﷺ وتطلبت ظروف دعوته . ولكن آفة الشك التى تمكنت من بعض النفوس ، دفعت قليلاً من الكتاب إلى الارتباب فى بعضها . والشك مبدأ مقرر فى أصول البحث العلمى إن ظهرت دواعيه . وبه يهتدى إلى اليقين لا محالة ، ولكن تعمد الشك لوجه الشك دون مبرر قوى مما يحدث بلبلة خطيرة تكاد تعصف ببعض حقائق التاريخ ، ولعلنا نستطيع أن نجثث فى هذه العجالة بعض الأشواك التى نجمت حول رسائل محمد ونصوص معاهداته ، إذا استعرضنا ملابسات العصر النبوى ومناحيه . لنرى فى ضوء ذلك إذا كان ما بقى لدينا من الرسائل النبوية ، والمعاهدات التاريخية مما توجه طبيعة العصر ، أو أنه مما ترعزعه هبات الشكوك بين الحين والحين .

ولقد كانت الرسائل الكتابية معروفة عند العرب قبل ظهور محمد ﷺ لوجود دواعيها من التجارة والرحلة والزراعة وعقود التحالف ، فإن جميع العرب لم يكونوا كما وقر فى كثير من الأذهان نزحاً متقاطعين لا يتواصلون ولا يتعاهدون ، ولم يكونوا جميعاً بدواً رحلاً لا يميلون إلى الاستقرار الهادئ ، ولم تكن جميع بلادهم صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء . فإذا تركنا إمارتى الحيرة وغسان لاشتهار حضارتيهما فإننا نعلن أن بعض قرى الحجاز غلبت عليها الزراعة ، وانتقلت إليها

آلاتها الحديثة مما جاورها من الأقطار . وإن كثيراً من القبائل قد توطن في أماكن خاصة لا يتعدها ، ولا يسمح لغيره من القبائل باحتلالها ، إلا إذا كان ذلك عنوة عن طريق الحرب ، كما تعتدى الآن دولة على دولة دون حق مشروع ، وأن القبيلة في موطنها الخاص تعرف أماكن الخصب والجذب في مدار العام ، فتنتقل في حدودها المعلومة إلى ما يفىء عليها الخير ، مبتغية مساقط الغيث ، ومنابت العشب مربغاً ومصيفاً في موطن واضح المعالم والرسوم . ولها مع غيرها من القبائل المجاورات معاهدات مكتوبة واجبة التنفيذ ، وقد تلح السنون بالجذب فتضطر القبيلة إلى الرحيل مكرهة غير راضية ، ثم لا تلبث أن تعود أدراجها إلى مكانها الأول ، ومن هنا كان ما نعلمه من عدم الاستقرار المكانى في البداية ليس أمراً عاماً تخضع له الكثرة الكثيرة ، وإنما هو نصيب القلة ممن لم تساعدهم حظوظهم على الاستقرار ، لذلك .. نجد مؤرخى القبائل يحددون أماكنها المتعارفة ، فطيئ مثلاً تسكن ما بين جبلى : أجا وسلمى ، وبنو أسد باليامة والأزد بعمان ، وعاملة وكلب وجذام ببادية الشام ، وقضاة في شمال الحجاز ، وجهينة وعذرة بوادى أخم بالحجاز ، وتميم ببادية البصرة ، وهذيل خلف جبال مكة ، وكنانة في جنوب الحجاز ، وقيس عيلان بالجزء الغربى من نجد ، ومنها فروع غطفان وعبس وذبيان ، وكندة في حضرموت ، وهكذا .. نجد لأكثر القبائل أمكنة محددة تساعدها على الاستقرار ، وتتيح لها أن تنتج وأن تباع وأن تشتري وأن تتعاقد شفويّاً وكتابيّاً ، ولها بعد ذلك مراتبها وخيامها وآبارها وحيواناتها لا ينافيها منازع إلا إذا أراد الحرب فتهدد الجماعة فادية حماها أن يستباح . أما التجارة فقد كانت الجزيرة العربية إحدى طرقها الدائمة ، وقد فتحت على العرب أبواب الرزق فكان كثير من القبائل يحمون القوافل من اعتداء الآخرين نظير جعل يأخذونه ، وكان الحجازيون بالذات يشترون السلع من اليمن والحبشة ثم يبيعونها في أسواق مصر والشام وفارس ، وقد اتخذوا مكة قاعدة

لتجارتهم ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شئونهم ؛ لأنها تقع في منتصف الطريق ، ولأنها تضم الكعبة التي يدين بها العرب ويقدسونها . وكان المكيون آمنين في رحلاتهم لأنهم أهل حرم الله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبْنَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

لهذا كله .. نشأت الكتابة قبل الإسلام في الحجاز ؛ لأنها من ألزم الأمور للتجارة ؛ إذ كان التاجر يجمع من أفراد القبيلة الواحدة ما يمكن أن تسير به قافلة كبيرة . ولا بد أن يعرف نصيب كل فرد ، وأن يلم بحظه من الربح أو الخسارة . فإذا تركنا التجارة إلى الأمور السياسية ، فإننا نجد المعاهدات والمحالقات تسجل في المهارق ، وإذا حام بعض الشك لدى المتزمتين عن معاهدات مثل حلف الفضول ، وحلف ذي المجاز فإن أشدهم إنكاراً لن يحوم شكه حول صحيفة المقاطعة بين قريش وبنى هاشم حين كتبت وعلقت بالكعبة . ومن أوضح الدلائل على شيوع الكتابة بمكة أن أسرى بدر قد فدوا أنفسهم بأن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الأنصار كيف يكتبون ، وأن الله عز وجل حين قال : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا

تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا

يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ ^(٢) إنما أمر بذلك ؛ لأن الكتابة

من الذبوع واليسر بحيث تكون مجالاً ميسراً للتعاقد ، فدعا إليها الإسلام .. وإذا كان مؤرخو السيرة النبوية قد أحصوا كتاب الرسول فبلغوا بهم خمسة وأربعين كاتباً في كثير من الروايات ، منهم من اختص بكتابة الوحي مثل عثمان بن عفان ، وعلى ابن أبي طالب فإن غابا فأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومنهم من كان يكتب الحوائج كخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومنهم من كان

(١) سورة القصص : ٥٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ .

يكتب للملوك كعبد الله بن الأرقم ، وزيد بن ثابت مع إشراكه في كتاب الوحي ، ومن كان يكتب المغانم كعميق بن أبي فاطمة ، ومن كان يكتب أموال الصدقات مثل الزبير بن العوام وجهم بن الصلت^(١) . وقد وجد هؤلاء جميعاً ووجدت بعد ذلك نصوص رسائلهم المكتوبة فما وجه الشك فيها ؟ لقد شئت الأقدار أن يسلم على مدى العصور ثلاثة أصول خطية مما أرسله محمد ، منها كتابه إلى المقوقس ، وقد وجده المستشرق الفرنسي (بارتلمي) في كنيسة قرب أخميم ، وكتابه إلى (المنذر بن ساوى) وقد نشره المستشرق (بلاشير) ، وكتابه إلى (النجاشي) وقد نشره المستشرق (دنبوب)^(٢) ، وبمقارنة الأصول على ما روته كتب السيرة والحديث ، لم نر فارقاً جليلاً يلتفت إليه ، فنصوص الوثائق النبوية إذاً جبهة ذائعة تعصف بما يخفت حولها من الشكوك ، ولنا أن نتعرض إلى الحديث عن طابعها الأدبي مطمئنين.

إذا نظرنا لما بقى بين أيدينا من رسائله ﷺ ومعاهداته ، نجد أنه يتفق كل الاتفاق مع ما شاع من تعريف البلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، فجعل هذا النصوص بمثابة مواد قانونية أرسلت للفصل في أمر يجب الاتفاق عليه ، فليس مجالها مجال أدب ترفده العاطفة ويوشيه الخيال ، ولكنها شروط محددة تلتزم الدقة البالغة في التعبير ولا تسمح للفظ أن يتجاوز موضعه الحقيقي إلى صورة خيالية تكون فيما بعد مثاراً للخلاف ، والذين يوازنون بين خطب الرسول وأحاديثه ، وبين رسائله فيرون الثانية من حيث البهاء الجمالي في موضع أقل من سابقتها فيأخذون ذلك عليها ، يخطئون تقدير الأمر ومقتضيات الأحوال لأن محمداً في خطبه أو أحاديثه يعمد إلى الإقناع بالفكرة الصائبة ، والصورة الأدبية المطبوعة ، فالمجال مجال أدب يرضى الوجدان والعقل معاً ، ومن هنا ظهرت بدائع

(١) (الوزراء والكتّاب) ، ص ١٢ .

(٢) (مجموعة الوثائق السياسية في عهد النبوة) للدكتور الحيدرابادي ، ص ٢٢ مع نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي للدكتور حسين نصار ص ٣٥ .

البيان الفنى فى الخطب والأحاديث ، أما الرسائل والمعاهدات فجلها شروط سياسية رسمية تلتزم نصوصها ، وتكون حجة لدى النزاع ، فكل توشية خيالية فيها تنافى التحديد الواجب ، وتحيذ عن مقتضى الحال إلى غير مقتضى الحال ، وبهذا الوضع الدقيق المجرد تقوم برسالها المنشودة على نحو لا يقوم به سواها فى شىء ، فنحن نرى الآن أساطين البلغاء من رجال القانون أو السياسة يجتمعون اليوم الطويل حول دائرة مستديرة ، ليكتبوا نصًا واحدًا فى معاهدة أو مادة فى قانون ، وهم فيما يكتبون حينئذ يحترزون عن كل لفظ يشم منه غير المقصود ، ويتوهمون كل دلالة قريبة أو بعيدة لا يقصدونها ، ويمكن أن تستنبط من بعض الألفاظ فيسارعون إلى استبدال غيرها بها ، ليأتى الكلام دقيقًا لا تساهل معه ، صريحًا لا شىء وراءه ، فإذا كتبوا المادة القانونية أو النص السياسى فى معاهدة ، فلن يقال عنه أنه حقائق مجردة لا تترقق فى أعطافها صور البيان . ولن يخرجهم أسلوبهم الدقيق عن دائرة الأدب الرسمى ، وإن برزوا بعد ذلك بما يكتبون خارج النطاق القانونى والسياسى من أدب فنى .. وما مثل معاهدات رسول الله ورسائله إلى المملوك وشيوخ القبائل إلا مثل هذه المواد التى يسطرها القانونيون والنصوص التى يملئها الدبلوماسيون ؟ فهل يجوز فى منطق العقل أن تكون نصوص أدب فنى حتى تقاس بالخطب والأحاديث . إن الحرص الشديد ، لدى أبلغ البلغاء على مراعاة مقتضى الحال ، جعل رسائله نوعًا من الإبلاغ الرسمى يسد الحاجة فى دقة وإحكام ، وهو بعد لا يغفل عقلية المرسل إليه ولا اتجاهه الدينى ، ولا واقعه السياسى ، وذلك ما لا بد منه لدى الكاتب الحصيف ، الذى يتعمد إصابة الهدف فى يقظة وإتقان .

لقد أرسل محمد ﷺ بعض كتبه إلى النجاشى النصرانى ، وإلى كسرى المجوسى ، وإلى ابنى الجلندى الوثنيين . فخطب كلاً بما يجب أن يخاطب به ،

عرف أن النجاشي كتابي يؤمن بالمسيح ومريم العذراء ، ولديه ثقافة دينية عن آدم وبدء الخليقة مما يقره الإسلام ، فكتب إليه في لباقة حصيفة^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ، سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصيفة فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني بالذي جاءني ، وقد بعثت معك ابن عمي جعفرًا ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى » وكان النجاشي في صميم ذاته مؤمناً ورعاً ، قرأ الإنجيل الصحيح وترقب ظهور نبي بشر به المسيح ، فلما جاء كتاب الرسول شفى منه غليلاً ، ففكر وقدر ثم أشرق نور الإسلام في قلبه ؛ فكتب إلى محمد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله ، من النجاشي الأصحم ابن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته ، من الله الذي لا إله إلا هو الذي هدانى إلى الإسلام . أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثغروفاً إنه لكم قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك يا بني أرها بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله . »

(١) « أسد الغابة » ، ج ١ ، ص ٦٢ .

وقد مات النجاشي مسلماً وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب .

أما رسالته إلى كسرى ، فقد كان رسول الله يعلم تكبره وصلفه ، ويعلم أن أقوى البراهين إقناعاً لا يقابل منه بغير الغضب والاستعلاء . ولكنه ملزم بتبليغه ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْبَلُغُ﴾ فلا بد أن تصل إليه رسالته فليجاهر إليه بدعوته ، وليسمعه شيئاً من القرآن ، وليحمله وزر المجوس إن أبي ، كل ذلك في أسطر قليلة تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »^(١) .

وقد تعالى الطاغية وتجبر ، فغضب ومزق الكتاب . وصاح في غيظ : يكتب إلى هذا وهو عبدى .

وأما ابنا الجلندى ملكا عمان ، فقد عرف الرسول وثنيتهما المظلمة ، وأن إنقاذهما بالسلم إن أمكن أو الحرب إن استدعى الأمر واجب لا محالة فأرسل إليهما يقول :

« من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقرتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما »^(٢) .

(١) « السيرة الحلبية » ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٢) « السيرة الحلبية » ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ .

تلك ثلاث من رسائله ، وما بنا أن نسطر جميع ما لدينا من رسائله ﷺ إلى هرقل والمقوقس وأهل البحرين وصاحب اليمامة وغيرها مما جمعه الأستاذ (أحمد زكى صفوت) مشفوعاً بمصادره فى الجزء الأول من « جمهرة رسائل العرب » ما بين صفحات ٢٥ ، ٩١ فإن الإشارة إلى مصادره تغنى عن ذكره ، ولكننا نجعل هذه الرسائل الثلاث أنموذجاً للكتابة الديوانية النبوية كما يحلو لمؤرخى الأدب أن يقولوا فى حديث الرسائل . وتتجلى فيها الدقة وإصابة الهدف مع الإيجاز والوضوح واتحاد المطالع ، وقد يرى بعض الناقدين أنها من الإيجاز بحيث لا تشرح قواعد الإسلام لقوم يجهلون . ونحن نرد على ذلك : أن النبى ﷺ كان يختار حامل الرسالة من صفوة أصحابه ليستطيع أن يفصح عن دينه بما عرف من نبيه ، وفى قصة إسلام النجاشى ما يشير إلى نقاش طويل بين النجاشى وجعفر بن أبى طالب من ناحية وبين جعفر ووفد الوثنية من قريش من ناحية ثانية ، حين بعثوا إلى الحبشة من يتعقب المسلمين هناك ، فردوا بغيظهم لم ينالوا شيئاً ، فلو أن الرسالة النبوية حملت بالبريد - على الرواحل حينذاك - دون مفسر شارح لأمكن أن تؤاخذ الرسالة باختصار ، ولكن حاملها صحابى مختار يعتنق الإسلام عن حمية وإيمان ، وحسبه أن كان موضع ثقة الرسول فى هذا المهم الخطير .

ولست أخرج فى شىء حين أستشف من هذه الرسائل حصافة الدبلوماسية المتزنة التى تجعل لكل حرف معناه . وأعنى بالدبلوماسية : السلوك السياسى الصحيح الذى يؤتمن على الكلمة ائتماناً لا يتطرق إليه التزيد ، وليس ما أعنيه ما شاع عن بعض أساليب الدبلوماسية من الاحتيال والدهاء والتريص ، فذلك شىء تجحده الدبلوماسية النزيهة فى لبها الصميم . ومن المعروف أن رسل محمد قد عادوا سالمين دون أن يقتل منهم أحد ، وأن هرقل والنجاشى والمقوقس قد ردوا جميعاً ، حتى توهم بعض المؤرخين أن هرقل قد أسلم وحسن إسلامه . أما الذى شذ وتكبر

فكسرى إذ كان يعانى هزيمة أليمة بعد حرب طاحنة مع هرقل رجع منها بالخذلان، فمزق الخطاب وكلف عامله على اليمن بمعاينة محمد . إن أكثر المستشرقين فى دهشة من جرأة نبي الإسلام على مكاتبة رؤساء العالم دون تهيب ، ويعتدون ذلك مجازفة خطيرة كان من الممكن أن تتمخض عن أحداث جسام . ولو علموا أن محمداً لا ينطق عن الهوى بل يسير بوحي من السماء لعرفوا مقدار ثقته فى ربه وفى نفسه . وإذ كانت رسائل محمد قد آتت كلها حين أحسنت الأداء عن صاحبها ، فإنها بإيجازها الدقيق تعد لا محالة ذات سداد مكين ، ولنا أن نتقل منها إلى نماذج من المعاهدات النبوية فتحدث عن طابعها الأدبى كما نراه .

(٢)

لنذكر الآن ما قلناه آنفاً عن الدقة القانونية فى معاهدات لا تخرج عن شروط دقيقة ، تتبع بين فريقين يتباعدان أو يتقاربان . ولعل معاهدة صلح الحديبية تصلح مثالا لأسلوب محمد القانونى ، لأنها بتواترها الذائع تمحو كل شك يهم باعتراضها ، وقد كان ممثل قريش فيها (سهيل بن عمرو) وهو فوق رزائته الهادئة ، وتشدده الحازم خطيب فصيح كان موضع تقدير سامعيه . وقد هم عمر بن الخطاب بكسر ثنتيه حين وقع أسيراً فى بدر لاشتهاره بخطبه المناوئة للدعوة الإسلامية ، فقال محمد ﷺ : دعه يا عمر ، فلعله يقوم مقاماً تحمده ، هذا الخطيب القرشى الفصيح كان ممثل قريش فى معاهدة الصلح ، وقد أبدى اعتراضات تمثل وجهة نظره من ناحية الصياغة ، حتى رفض كلمة محمد رسول الله وقال : لو كنت أعلم أنك رسول الله ما نازعتك ، فحسم الرسول الأمر ومحا كلمة رسول الله بعد أن رفض محوها على ابن أبى طالب ، وكان ما أملاه محمد بعد الجدل والاعتراض ومناقشة المسلمين الغاضبين كعمر بن الخطاب تارة وفريق سهيل من المشركين تارة ثانية ، كان ما أملاه بعد الصراع المتأزم ينحصر فى قوله :

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا أسلاب ولا أغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه^(١) .

فهذه معاهدات ذات مواد صريحة ، وذات ألفاظ محددة ملتزمة ، وليس بها من الخيال التصويرى غير قوله ﷺ : « إن بيننا عيبة مكفوفة » والعبية في الأصل : زنبيل من آدم يجعل فيه الثياب ، ومكفوفة مشرحة مشدودة على ما فيها ، والعرب تشبه الصدور التي تضم القلوب بالعياب التي تشرح على حر الثياب وفاخر المتاع ، فجعل عليه الصلاة والسلام العياب المشرحة على ما فيها مثلاً للقلوب تطوى على ما تعوهد عليه مثل بها الذمة المحفوظة التي لا تنكث ، وهذا رأى في الصورة البلاغية ، وهناك رأى آخر يقول : إن المراد أن الشريكين مكفوفاً بينهم كما تكف العياب إذا أشرجت على ما فيها من المتاع^(٢) ، وكذلك الذحول التي كانت بينهم كما تكف العياب إذا اصطلحوا على ألا ينشروها بل عليهم أن يتناسوها كأنهم جعلوها في وعاء وأخرجوا عليها . هذه صورة بلاغية واحدة تختلف البلاغيون في مؤداها إلى رأيين ، وكلاهما صحيح في بابه ومتفق مع الظروف والملابسات المصاحبة للمعاهدة ، وقد تعمدت تفصيل ذلك ليكون شاهداً قائماً على ما قررته أن أساليب البيان مما يفترق معه الرأى إذا حشدت في المعاهدات الوثائق وأن مجافاتها ما أمكن سبيل الاتفاق واللقاء من طريق قريب . والصورة البلاغية على لسان بليغ عظيم

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٣١ .

كمحمد ، لا تؤدي إلى خلاف ما كما نرى ، ولكنها على يد غيره موضع المزالة .
لذلك كان اجتنابها أحزم .

ونختار نصًّا آخر من معاهداته . وهو ما عاهد عليه الصلاة والسلام به أهل
نجران حيث أرادوا مصالحته على الجزية . وهي معاهدة مثقلة بالشروط ، متعددة
الأزمنة دقيقة الحساب ، تضم في السطور الموجزة ما تتسع له صفحات كثيرة ،
وإيرادها بنصها التاريخي يكشف عن السداد البصير في التحديد الملزم ، والتفصيل
الشارح ، والتنويع الكاشف بحيث تجب كل اختلاف يمكن أن يتاح ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما كتب النبي ﷺ لأهل نجران ، إذ كان عليهم
حكمه في كل ثمرة ، وفي كل صفراء ، وبيضاء ، وسوداء ، ورقيق ، فأفضل ذلك
عليهم ، وترك ذلك كله لهم ، على ألفى حلة من حلل الأواقي ، في كل رجب ألف
حلة ، وفي كل صفر ألف حلة ، كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو
نقصت عن الأواقي فبالحساب ، وما قضوا من دروع أو خيل أو عروض أخذ منهم
بالحساب ، وعلى نجران مئوى رسلى شهراً فدوناه ، ولا تحبس رسلى فوق شهر ،
وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين بعيراً ، وإذا كان كيد باليمن ومعة ، وما هلك
مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض ، فهم ضمن حتى يردوه
إليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، على أموالهم
وأ أنفسهم وأرضهم وملتهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرته وبيعهم ، وكل ما تحت
أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف عن أسقفية ولا راهب عن رهبانيتها ،
ولا كاهن عن كهانته ، وليس عليهم دنية ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون
ولا يعثرون ، ولا يطاء أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف ، غير
ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل منهم رباً من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ

رجل منهم بظلم آخر ، ولهم على ما في هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبي ﷺ رسول الله أبداً ، حتى يأتي الله بأمره نصحو وأصلحو فيما عليهم غير منفلتين بظلم»^(١) .

هذا هو نص المعاهدة ، وهو نص بليغ إذ يطابق مقتضى الحال .

لقد تعرض الدكتور حسين نصار إلى رسائل محمد ﷺ ومعاهداته ، فقال ما نصه^(٢) :

« هذه هي حال الكتابة في عهد النبي ﷺ ، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم : «الكتابة الفنية» ، أعتقد أن من الواضح الذي لا شك فيه بعد كلامنا الطويل أننا لا يمكننا ذلك ، فإنها ليست إلا كتباً مرتجلة محلاة بلغة سهلة هي لغة الحديث لا يوشىها شيء من عمل أو جمال فير فصاحة لغة الحديث عند العرب بل تهبط لغتها كثيراً عن لغة الخطابة التي كان لها تقاليد المرعية ، وقواعدها الأدبية منذ العصر الجاهلي ، ولم تكن تسمو إليها إلا في بعض الرسائل » .

وموضع النقد في كلام الدكتور أنه : أغفل مقتضى الحال المتعارف عليه في كتابة الرسائل السياسية ، والمعاهدات القانونية قديماً وحديثاً حتى يومنا هذا ، فإذا كانت كتب الرسول سريعة مملأة بلغة سهلة لا يوشىها شيء من عمل أو جمال غير فصاحة الحديث عند العرب فذلك مما يجب أن يحسب لها لا عليها في مثل موقفها الدقيق ، ولا يمكن أن تخرج عن الكتابة الفنية ، لأن الفن في صميمه التزام بما تقتضيه الظروف والملابسات . هذا ما نعرفه . ولكن الدكتور في مقدمة كتابه^(٣) يقول : « إنه يعنى بالكتابة الفنية ما لا تصدر عن سليقة تقصد إلى الإفهام إنما يريد الكتابة التي

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) « نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي » ، ص ٤٧ .

(٣) « نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي » ، ص ٣ .

تروى صاحبها في تجريد المعنى ، وتأتى في اختيار اللفظ قبل إبرازها لتخرج محبرة مجودة لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده ، وإنما يقصد أيضًا إثارة اللذة عند القارئ والإحساس بالجمال . ولذلك نعت كتابات العرب الجاهلين ، وكتابات الرسول والصحابة بأنها غير فنية على الرغم من فصاحتها وجمالها ، فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده ، إنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانع فنان يعرف ما يعمل ويريده ويبحث عنه .

والذى يقرأ الرسائل النبوية لا يشك أن صاحبها قد تروى في تجويد المعنى وتأتى في اختيار اللفظ ، وليس ملزمًا بأن يثير اللذة عند القارئ السطحي ، ولكن القارئ الناضج المدرك لملازمات الوثائق والمعاهدات يعلم أن الإتيان بما يناسب المقام مصدر متعة وجمال ، ونحن مع ذلك كله لا نعتبر المعاهدات من النثر الأدبي ، ولكن من الذى ينكر أن النثر العلمى بإقناعه وعمقه مصدر لذة وجمال لدى المفكر الأصيل ، حتى يقول الدكتور : إنها لا تثير عند القارئ إحساسًا بالجمال ، ولماذا يطلق الدكتور الحكم على جميع ما لدينا من آثار العرب الجاهلين والرسول والصحابة . أليس ذلك مصدر شطط بعيد . لقد رجع إلى جمهرة رسائل العرب أكثر من عشرين مرة ، أفلم ترقه رسالة النعمان إلى كسرى في شأن (عدى بن زيد) ص ١٣ ألم يرقه كتاب (النعمان بن قبيصة) إلى (أكثم بن صيفى) ص ٢١ ألم يرقه كتاب أبى بكر إلى أهل الردة ص ١١٤ ألم ترقه كتب أبى عبيدة إلى عمر في أكثر من موضع ، أم ترقه مراسلات على بن أبى طالب إلى معارضيه ومؤيديه معًا ، وما أبرعها فصاحة ونصاعة وبهاء . أكذلك يعم الحكم جميع رسائل الجاهلية ومحمد ﷺ وأئمة الصحابة دون احتباس !! .. لقد كان الرسول مشغولاً بأحداث الدعوة عن أن يكون صانعًا فنانًا كما يشترط الدكتور ! وهنا موضع العجب من الذى لا يهش لأدب السليقة المطبوعة ! ويدعو إلى الصنعة المتكلفة ! إن عشرات الرسائل التى يكتبها صانعو الفن لا تسمو إلى رسالة واحدة أرسلها فصيح مطبوع هو محمد بن

عبد الله معزيًا بها معاذ بن جبل في وفاة نجله فأى تعزية ؟ وأى تأثير . وأى لذة مقنعة راضية صابرة يجدها القارئ في قول محمد .

« من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل . سلام عليك ، فإنى أحمد إليه الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ، نمتنع بها إلى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى . والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعوارفه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك با معاذ خصلتين ، أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده ، وعرفت أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتًا ، ولا يدفع حزنًا ، فأحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد »^(١) .

لا يستطيع ناقد منصف أن يجحد مواضع الإبداع فى قوة الإقناع ، وصدق العاطفة وجميل العزاء ، واطراد التعبير ! وكل ذلك مصدر جمال وإمتاع ، ولن ينتظر من رسائل قائد أعظم كنبى الإسلام ، أن يكتبها فى غير ما يمت إلى ذلك النمط العاقل البديع أفينتظر من رسول الله أن يكتب رسالة فى الهجاء كابن زيدون ، أو فى التهكم كالجاحظ أو فى المدح كالبديع ، أو فى الغزل كابن العميد ؟ ليصبح بذلك صانعًا فنانًا ، تحوز كتابته ثناء الناقدين ! هيهات هيهات .. لقد كتب الرسول البليغ ما يعقل أن يصدر عن نفسه الذكية العاقلة ، وطابق بين الحال ومقتضاه ، وبين القول ، وصاحبه فجاء ما كتبه آية فى بابه على غير مباهاة بالقول أو تزيد بالحديث !!

(١) جبهة رسائل العرب ، ج ١ ، ص ٦٥ .

على أن نماذج محمد في الرسائل والمعاهدات كانت فاتحة لما جد بعدها من مئات الرسائل التي كتبها خلفاء محمد ، وقادة الحروب ، وأمراء البلاد في الإسلام . إذ إن حركة الفتح الإسلامي التي شملت ثلاث قارات عظيمة ، وقد تطلبت طوفاناً من الرسائل الديوانية والوصايا السياسية والمعاهدات الحربية ، ابتداءً ذلك من عهدى أبى بكر وعمر ، وكلاهما حريص على محاكاة الرسول في نهجه الكتابي ، حتى أصبحت كتاباته نماذج محتذاة في بدئها وختامها ووضوحها وترك اللغو والفضول ، وإن الذى يرجع إلى عشرات من هذه الوثائق في عهد الخلافة الراشدة يجد النمط المحمدى بارز المعالم واضح الاتجاه ، وقد أخطأ الدكتور (حسين نصار) تعليقه حين قال ^(١) عن رسائل النبى :

« أما ما اتبعه - النبى محمد - من نظم في أوائل الرسائل وخواتيمها ، فإن هى إلا أمور اقتضتها الدعوة التى يشر بها ، فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله ولم يخلوا بنظمه ، وهنا نستطيع أن نقول : إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية ، ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأى نظرة سهلة غير متشدة ؛ إذ إن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعاً دينياً لا أدبياً ، فهم يعتبرونها سنة من الرسول ، ولذلك نرى رسائل على التى يرسلها إلى معاوية يدعو فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شبهاً كبيراً ، وإذا فهذه تقاليد دينية لا أدبية يمكن أن نعتبرها فنية ، ولم تتطور لغة الرسائل كثيراً في هذه الفترة ؛ إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام » .

والذى حدا بالدكتور أن ينص على أن محاكاة أسلوب الرسول كانت محاكاة دينية لا أدبية ، ما رآه من بدء الرسالة بالبسملة وحمد الله والصلاة على نبيه وختمها بالسلام ، فاعتبر ذلك من خصائص الدين لا الأدب ، ناسياً أن الأدب في كل عصر ترجمة عن شعور صادق ، وقد كان إحساس أصحاب الرسائل وبخاصة في عهد

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٦٥ .

الخلافة الراشدة إحساساً دينياً عميقاً ، فجاءت رسائلهم مضمخة بعبير الدين ، وهم يصدقون بذلك التعبير عن خوالجهم الخالصة ومشاعرهم الصريحة ، فأسلوهم الدينى إذ ذاك من صميم الأدب الصادق ولبابه ، وليس مجرد تقليد ديني ، وقد يمكننا أن نعتد بعض كتب سلاطين آل عثمان في العهود الأخيرة ذات تقليد ديني لبعدها كاتبيها عن روح الإسلام الأصيل ، أما أن تعتبر كتب الخلفاء الراشدين ومن نهج نهجهم مجرد تقليد ديني لا ينبئ عن شعور صادق ، فهذا موضع النقد ! لذلك .. كانت رسائل محمد أنموذجاً أدبياً ودينياً معاً لصحابته ، وقد ظهر احتذاؤها في القرن الأول ، حتى جاء (عبد الحميد الكاتب) فطغت عليه ثقافته الفارسية وجعلته يتتبع نمطاً جديداً من الرسائل الديوانية ، يميل إلى الأسلوب المطيل والترادف المطب ، متخذاً وسائل التعظيم والإكبار للخلفاء والرؤساء بعد أن عرف ما كان عليه كتاب البلاط الفارسي من إكبار بالغ للأكاسرة ، وتمجيد مسرف للأمرء ، فتأثر بذلك كله وأحال الرسائل السياسية من لون إلى لون ، ومنذ عهده رأينا كتابة الرسائل تميل إلى لون جديد من التعبير ، انتهجه الكاتبون من بعده ، تشقيق قول ، وتوليد معنى ، وترادف لفظ ، وتفخيم رئاسة مع مبالغة مفرطة في الوعيد والترهيب ، ومباهات بالحوال والطول ! ولعلنا بذلك نستريح إلى ما قررناه من أستاذية النهج المحمدي لجميع من صدرت عنه الرسائل ، حتى جاء (عبد الحميد) فاستبدل نهجاً بنهج .

وإنصافاً للدكتور (حسين نصار) نقرر أنه انتهى من بحثه عن نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي إلى نتيجة نراها صحيحة قوية ؛ إذ أعلن في خاتمة كتابه : أن الكتابة الفنية العربية كانت وليدة الثورة التي قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، « وإن كتابة الرسائل بجميع أنواعها ، نشأت في عصر مبكر بدافع من الظروف والعوامل التي تحرك الجماعة العربية في عصرها ذلك ، فهي ثمرة الثورة التي قام بها الإسلام ، وأخضع العرب لها وأمدهم بأسسها التي يقيمون عليها حياتهم الجديدة ، وإذا فكتابة الرسائل الفنية كانت ظاهرة حتمية

لم يتجنبها العرب وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها بعد أن دفعهم القرآن تلك
الدفعة التي ذهبت بنظمهم السياسية الجاهلية أدراج الرياح»^(١).

هذا مجال القول في : رسائل محمد ومعاهداته فنًا وتأثيرًا ، وقد أرجأنا الحديث
عما تضمنته بعض الرسائل النبوية من الغريب العويص ، مما لم يوجد في لغة قريش ،
مراعاة لألفاظ القبائل الأخرى ؛ إذ يخاطبهم بما يفهمون ، أرجأنا ذلك إلى فصل
يتحدث عن خصائص الأسلوب النبوي ، وما هو بعيد .

* * *

(١) « نشأة الكتابة الفنية » ، ص ٥٤٠ .